الفصل الرابع

الدولة الفاطمية فى مصر

• قيام الدولة الفاطمية في المغرب:

منذ أواخر النصف الأول من القرن الثاني الهجري، أصبحت بلاد المغرب محط اهتمام الشيعة، وكان أهل هذه البلاد اذهانهم مهيأة للاستماع إلى الدعوة لال البيت منذ أن نجح الأدارسة الحسنيين في تكوين دولتهم هناك.

بدأت الدعوة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب على يد أحد الدعاة لها عرف بأبي عبدالله الشيعي، وهو عراقيًا شيعيًا هاجر إلى بلاد المغرب بسبب تضييق الدولة العباسية على المذاهب الشيعية ودعاتها، وكانت بلاد المغرب بعيدة عن سيطرة الدولة العباسية.

ومن المعروف أن الشيعة مذاهب متعددة ولكل مذهب منها إمام مختلف، ويبدو أن أبو عبد الله الشيعي كان على المذهب

الإمامي الإثنى عشري، إلَّا أنه تحول إلى المذهب الإسماعيلي بعد وفاة الإمام محمد بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر للشيعة الامامية، والمذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة الفاطمية.

بعدما استقرت الأمور لأبي عبد الله الشيعي في بلاد المغرب، وزاد عدد أنصاره، وأصبحت الأمور مهيئة لقدوم الإمام المنتظر لهذه الفرقة، طلب أبو عبد الله الشيعي من المهدي القدوم إليه حيث أن الأمور قد استقرت.

وصل المهدي إلى أفريقية وتسلم مقاليد الحكم من أبي عبد الله الشيعي وأصبح أول الخلفاء للدولة الفاطمية الشيعية في بلاد المغرب.

أما عن سبب تسمية الدولة بالفاطمية، فيرجع إلى أن مؤسسيها نسبوا أنفسهم إلى نسل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله (صلى الله عليه وأله وسلم)، وزوج الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، والأرجح عندنا هو ما قاله سواد العلماء في هذا النسب، أن نسبهم هذا مشكوك في صحته، حتى أن العزيز بالله بن المعز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إنـــا سـمـعـنـا نـسـبـا مـنـكـرا يـتـلى عـلى المـنـبر في الـجـامـعِ
إن كـنـت فـيـما تـدعـي صـادقـا فـاذكـر أبًـا بعد الأب السابعِ
وإن تـــرد تـحـقـيـق مـا قلته فانسب لنا نفسك كالطائعِ
أولا دع الأنـســاب مـسـتـورة وأدخـل بنا في النسب الـواسـعِ
فـإن أنـسـاب بني هاشم يقصر يـقـصر عـنـهـا طـمـع الـطـامـعِ

فالأدق هو تسمية دولتهم بالدولة العبيدية نسبة إلى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة، ولكن اسم الدولة الفاطمية هو الأشهر على مسامع الناس .

على أي حال كان المهدي هو أول خلفاء الدولة الفاطمية، وشرع في بناء حاضرة جديدة لدولته لتكون مركزًا للدعوة الشيعية وحصنًا يحتمي به الفاطميون وقت الحاجة من غضبة أهل المغرب، واختار عبيد الله المهدي لها اسم المهدية نسبةً إلى لقبه، كما أن الموقع الذي تم اختياره لبناء المهدية كان بعيدًا عن القيروان التي كانت تعتبر مركزًا لأهل السنة من المالكية.

الغزو الفاطمي لمصر:

بعد وفاة المهدي بويع ابنه القاسم محمد بالخلافة والذي تلقب بالقائم بأمر الله، ثم خلفه المنصور بالله إسماعيل، وبعد وفاة

المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله أبو تيم، وهو رابع خلفاء الدولة الفاطمية إلَّا أنه أشهرهم، حيث ضمت مصر إلى أملاك الدولة الفاطمية في عهده.

وكان لمصر أهمية كبيرة عند خلفاء الدولة الفاطمية، فمصر دولة غنية بمواردها الاقتصادية، كما أن السيطرة على مصر يسهل للفاطميين السيطرة على الحجاز مما يعطي شرعية كبيرة لخلافتهم.

مصر قلب العالم الإسلامي وصاحبة نفوذ على الحرمين الشريفين منذ العصر الإخشيدي، لذا كانت مصر مهمة للفاطميين، طمعوا فيها منذ تكوين دولتهم في بلاد المغرب.

لم يتوان الفاطميون عن توجيه حملاتهم للاستيلاء على مصر منذ بدء دولتهم حتى أن أول خلفائهم عبيد الله المهدي أرسل إليها أول حملاته بعد نحو أربعة أعوام فقط من تسلمه مقاليد الحكم في أفريقية، ولقد شكلت الحملات الفاطمية على مصر منذ ابتدائها حتى الاستيلاء على مصر موجتين كبيرتين تشتمل كل موجة منها على عدة حملات، وتفصل بينهما فترة توقف اضطراري طالت لأكثر من ربع قرن بسبب انشغال الفاطميين بشئون المغرب، ومع أن الموجة الأولى من هذه الحملات كانت الأطول زمنيًا من الثانية،

فقد كانت أقل فعالية منها، إذ أن الموجة الثانية هي التي حققت أمل الفاطميين المنشود للاستيلاء على مصر.[1]

على أي حال، في سنة 355 هـ أعد المعز لدين الله عدته للاستيلاء على مصر، فأمر بحفر الأبـار وتمهيد الطرق وإقـامـة القصور والمعسكرات على طول الطريق بين أفريقية والإسكندرية، وأسند إلى قائده جوهر الصقلي قيادة الجيش الفاطمي إلى مصر ومنحه كل الدعم.

استطاع جوهر الصقلي الاستيلاء على مصر في رمضان سنة 358هـ، ويبدو أنه لم يجد مقاومة في مصر، حيث هرب جند الإخشيد وأقيمت الدعوة في جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، ثم سار جوهر إلى مسجد بن طولون وأمر المؤذن باستعمال عبارة (حي على خير العمل) بدلا من (الصلاة خير من النوم)، ثم صار يؤذن بها الأذان في مساجد مصر.[2]

توالت انتصارات الدولة الفاطمية حتى استطاعوا الاستيلاء على كل أراضي الدولة الإخشيدية في مصر وخارجها.

1- صفحات من تاريخ الدولة الفاطمية ص61 – أ.د. محمد بركات البيلي

2- مصر الإسلامية ص127 – أ.د. عصام الدين عبد الرءوف

أما عن أحوال مصر وأهلها عند قدوم جوهر الصقلي إليها، فلا أبلغ من قول المقريزي حين قال:

" وكان في عامة أرض مصر حينئذ من الشدة والغلاء والوباء أمر لم يعهد من قبل مثله بحيث أنه أحصي من مات في أيام يسيره فكانوا ستمائة ألف إنسان، وكانوا يلقون الغرباء في النيل، وبلغ الفروج دينارًا والبيضة درهمًا وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا مع كثرة الفتن وتغلب كل أحد من العمال وغيرهم على مايليه واختلاف أهل الدولة بمصر من الإخشيدية والكافورية، وكثرة تحاسدهم وعظم الخوف من هجوم القرامطة على مصر وكانوا قد انتشروا في بلاد الشام فاختلت من أجل هذا وشبهه الأحوال بديار مصر، واضطربت أمور الناس، وتغيرت نياتهم، وساءت معاملاتهم وفسدت أكثر أوضاعهم، وشمل الخراب عامة أرض مصر لموت أهلها وقلة أموالها، وتعذر وجود الأقوات، وكثرة الخوف وكان بمصر جماعة من دعاة المعز فاستمالوا من القواد ووجوه الرعية، وأنفذ إليهم المعز بنودا ففرقوها فيمن استجاب لهم، وأمرهم أن ينشروها اذا قاربت عساكره مصر". [1]

1- المقفى – المقريزي– ترجمة جوهر الصقلي

فمن الواضح أن أحوال مصر قد ساءت في الوقت الذي عجزت الخلافة العباسية عن التدخل لإقالة الإخشيديين أو استرداد مصر منهم، فكانت مصر مُهيأة للغزو الفاطمي من كل الاتجاهات.

بالفعل حقق الفاطميون حلمهم في الاستيلاء على مصر، وكان بطل ذلك قائدهم جوهر، ويمكن أن نؤكد أن وضع مصر قد تغير تمامًا في العصر الفاطمي، حيث تحولت مصر من مجرد ولاية تابعة للخلافة الإسلامية الراشدة ثم الأموية ثم العباسية، أو حتى من كونها دولة مستقلة عن الخلافة كالدولتين الطولونية والإخشيدية، إلى حاضرة خلافة تنافس الخلافة العباسية وتسعى إلى انتزاع زعامة العالم الإسلامي منها.

أما عن تاريخ حكام الدولة الفاطمية في مصر فنوجزه فيما يلي:

جوهر الصقلي 358هـ - 362هـ:

تولى جوهر الصقلي الحكم في مصر نيابةً عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي نحو أربع سنوات، عمل خلالها على التمهيد لنقل المعز وخلافته إلى مصر، وكان من ضمن أعمال جوهر الصقلي المهمة أثناء فترة ولايته على مصر هو بناء مدينة القاهرة، ولم يختر مكانًا جديدًا لحاضرة الدولة الفاطمية الجديدة، فاختار

موقعها في نفس المكان الذي أقيمت فيه العواصم الإسلامية في مصر من قبل.

أقام جوهر قصرًا للخليفة ليكون مقرا لحكم الدولة الفاطمية، كما قام ببناء المسجد الجامع والذي عُرِفَ باسم الجامع الأزهر والذي سُمْيَّ بذلك نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت النبي (صلى الله عليه وأله وسلم)، والتي يرفع الفاطميون نسبهم إليها.

شرع جوهر الصقلي في مجموعة من الإجراءات الدينية لتحويل هوية الشعب المصري السني إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي الذي اعتنقته الدولة الفاطمية، وقد بدأ ذلك بإفطاره من صوم رمضان على عدد بغير رؤية، وصلى صلاة العيد بمصلى القاهرة قبل أهل مصر بيوم.

وفي يوم الجمعة 8ذو القعدة 358هـ / 969م زاد في الخطبة " الصلاة على علي المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين وعلى الأئمة الراشدين أباء أمير المؤمنين الهاديين ".

ومن الواضح أن جوهر الصقلي لم يلتزم بالأمان الذي أعطاه لأهل مصر بألَّا يعارض مذهبهم السني.

المعز لدين الله الفاطمي:

دخل المعز لدين الله قصره في القاهرة في رمضان 362هـ / 973م، وتسلم مقاليد الأمور من جوهر الصقلي وترتب على ذلك تغيرا خطيرا لمصر والعالم الإسلامي أجمع،

اذ تحولت مصر من مجرد دار إمـارة إلى دار خلافة (وإن لم تصح هذه الخلافة)، وأصبحت هي مقر ومركز الخلافة الفاطمية والقاهرة هي حاضرة الخلافة الفاطمية.

بعد أن بسط جوهر الصقلي نفوذ الدولة الفاطمية في الشام تطلع المعز لدين الله إلى الحجاز وقد امتد نفوذه إلى الحجاز تلقائيًا، اذ بادر أشراف الحجاز العلويين إلى إعلان الولاء والبيعة له بعد سقوط الدولة الإخشيدية والتي كانت صاحبة النفوذ عليهم.

على هذا النحو فالمعز لدين الله هو رابع خلفاء الدولة الفاطمية بوجه عام، وأول خلفائها في مصر، ولم تستمر خلافته طويلا حيث توفي 365هـ وتولى ابنه العزيز بالله بعده الخلافة.

خلفاء المعز لدين الله في مصر:

تَولى العزيز بالله الخلافة في مصر بعد وفاة أبيه المعز لدين الله، رغم أنه لم يكن أكبر أبنائه، وقد استكمل العزيز بالله ما بدأه المعز

من تثبيت لأركان الدولة الفاطمية في مصر وساعده في ذلك القائد جوهر الصقلي، وقد اعتبر البعض عصر العزيز بالله أزهى عصور الفاطميين في مصر، إذ كانت خلافته فترة رخاء وعلم وتسامح ديني.

تُوفِيّ العزيز بالله وبويع لولده أبو علي بن العزيز بالخلافة سنة 386هـ وتلقب بالحاكم بأمر الله وكان عمره حينذاك قد بلغ احدى عشر سنة ونصف، فتولى الوصاية عليه أستاذه ومربيه برجوان الخادم.

ظل برجوان الخادم متحكمًا في أمور الدولة حتى سنة 395هـ حتى تخلص منه الحاكم بأمر الله وانفرد بأمور الدولة، وعرف عن الحاكم بأمر الله تعصبه لمذهبه الشيعي، واضطهاده للشعب المصري السني المذهب، كذلك تشدد مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود.

كان للحاكم أمور غريبة في الحكم، فمنها منع التجول ليلًا والجلوس في الحوانيت، وكذلك منع ذبح الأبقار ومنع النساء الخروج من بيوتهن، والأغرب من ذلك أنه منع أكل السمك الذي لاقشر له (القرموط)، كما حرم أكل الملوخية وبرر ذلك بأن معاوية

بن أبي سفيان كان يميل إليها، كما حرم أكل الجرجير، إلَّا أنه يحسب لها أنه أقام دار الحكمة سنة 395هـ.

على أي حال قتل الحاكم بأمر الله في 411هـ، واختلفت الروايات فيمن قتله، وكيف قتله؟ وأين قتله ؟، لكن الثابت لدينا أنه قتل ومات سره معه.

وقد ظهر في عهده طائفة تعرف بالدروز تعتقد في ألوهية الحاكم بأمر الله ويؤمنوا بأنه اختفى ولم يقتل وأنه سيرجع لحكم العالم وتطهيره، أي أنه مهديهم المنتظر.

لما قتل الحاكم بأمر الله تولى أمر الخلافة بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله والذي توفي 427هـ.

• الشدة المستنصرية:

بوفاة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله في 427هـ، ذهبت الخلافة إلى ابنه أبو تميم محمد المستنصر بالله، وكان عمره لم يتعد السابعة بعد، لكنه استمر في الخلافة 60عاما، فكانت خلافته أطول عهود الخلافة في العالم قاطبةً سواء بين خلفاء السنة، أو خلفاء الشيعة.[1]

1– أ.د.محمد بركات البيلي – المرجع السابق – ص108

كانت بداية عهده تتمتع بالرخاء والازدهار، إلَّا أن الأزمات داهمته وزعزعت دولته، وترتب على ذلك ظهور ما عرف بعصر الوزراء العظام والذين استبدوا بالحكم، ولم يكن للخلفاء الفاطميين معهم من السلطة الا الاسم فقط.

كان السبب الرئيس في هذه الأزمة هو انخفاض النيل، حتى عز ما يأكله الناس وتفشى الموت حتى قيل أنه كان يموت كل يوم بمصر عشرة ألاف نفس، وأكل الناس بعضهم بعضا، وعرفت بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية.

دفعت الأحداث المستنصر إلى أن يعهد إلى والي عكا من قبله بدر الجمالي بإدارة شئون الدولة، وقد جعله الله سببا في انقاذ مصر من عثرتها، وبه بدأ عصر الوزراء العظام، الذين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية في هذا العصر، وكان أخرهم صلاح الدين الأيوبي الذي أنهى الخلافة الفاطمية.

بويع أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بالخلافة بعد أبيه المستنصر، وفي عصره كان بداية تكوين الإمارات الصليبية في الشرق.

بويع الامر بأحكام الله بعد وفاة أبيه المستعلي، ثم تولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله عبد المجيد على أنه كفيل لطفل

منتظر سوف تنجبه إحدى سراري الامر بأحكام الله، إلَّا أنه ظل في الخلافة حتى مات وبويع للخلافة ابنه الظافر بالله أبو منصور إسماعيل.

لما توفي الظافر بالله أخذت البيعة لابنه الفائز بنصر الله والذي لم يكن قد تجاوز الخامسة من عمره بعد، فكانت مقاليد الحكم كلها في يد الوزير طلائع بن رزيك.

سقوط الدولة الفاطمية:

توفي الخليفة الفائز وخلفه العاضد لدين الله الفاطمي، وهو أخر خلفاء الدولة الفاطمية، اذ أن عصره شهد تطورات عظيمة كان لها بالغ الأثر في تغيير بوصلة التاريخ، ليس في مصر والعالم الإسلامي فحسب، بل العالم باسره.

فقد تنازع على منصب الوزارة في عهده اثنين من رجالات الدولة أحدهما يدعى شاور وهو والي الصعيد، والأخر هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار اللخمي.

فَرَّ شاور إلى الشام وكان بها دولة سنية قوية هي الدولة الزنكية التي أسسها عماد الدين زنكي، وحكمها بعد وفاته ابنه نور الدين محمود، وكان للدولة الزنكية صولات وجولات ضد الحملات

الصليبية التي جاءت إلى الشرق واستطاعت أن تكون إمـارات صليبية مستغلة حالة الضعف والهوان التي مرت بها كل من الخلافتين العباسية السنية والفاطمية الشيعية.

على أي حال استنجد شاور بنور الدين محمود، وتعهد له أن يدفع نفقات الحملة التي ترسل معه لتأتيه بالوزارة، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كجزية سنوية، وأن يتصرف في مصر كوكيل لنور الدين محمود.

من ناحية أخرى علم ضرغام بتحالف شاور ونورالدين، فعمل على محالفة عموري الأول ملك بيت المقدس الصليبي، إلَّا أن الجيش الذي أرسله نور الدين محمود إلى مصر مع شاور، والذي كان بقيادة أسد الدين شيركوه، كان أسرع في الوصول إلى مصر واستطاع هزيمة ضرغام وقتله.

يبدو أن شارور بعد أن تخلص من ضرغام بفضل جيش نور الدين محمود، قد تنكر من وعوده له وطلب من أسد الدين شيركوه أن يغادر مصر، إلَّا أن أسد الدين شيركوه رفض المغادرة ورابط بجيشه في بلبيس بالشرقية حتى ينفذ شاور وعوده.

استنجد شاور بعموري ملك بيت المقدس ليخلصه من جيش

شيركوه المرابط في بلبيس، وبالفعل وصل جيش عموري وحاصر شيركوه في الشرقية، إلَّا أنـه تم الاتفاق على مغادرة شيركوه وعموري مصر معا، فخرجا وتركا مصر لشاور مرة أخرى.

كل هذه الأحداث تمر بالبلاد وأكثر، والخليفة العاضد الفاطمي لا حول له ولا قوة.

مرت الشهور، ووجهت الحملات الصليبية إلى مصر برعاية شاور، ولم يكن أمام السلطان نور الدين محمود بُدَّاً من إرسال جيشه إلى مصر للتصدي للحملة الصليبية القادمة، كم أنه أدرك أهمية مصر إن استطاع انتزاعها من الفاطميين الشيعة وضمها إلى تحالف دولته المجاهدة ضد القوى الصليبية في الشرق.

أرسل نور الدين محمود جيشه من جديد إلى مصر وكان بقيادة أسد الدين شيركوه مجددًا والذي استطاع هزيمة الحملة الصليبية وقتل شاور الخائن، وتم تعيين أسد الدين شيركوه وزيرًا للخليفة العاضد الفاطمي.

ما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين فقط من الخلاص من شاور فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

ورغم صغر سن صلاح الدين، إلَّا أنه استطاع ان يكسب ثقة

أهل مصر ومحبتهم وكانوا عونًا له فيما واجهه من قلاقل وفتن داخلية، أو أطماع الصليبيين الخارجية.

أصبح صلاح الدين هو حاكم مصر المطلق بينما أصبح الخليفة العاضد بلا أمر ولا نهي.

وكان أمرًا متناقضا أن تبقى الخلافة الفاطمية الشيعية تحت حماية قوة سنية متشددة في ميولها السني، إذ كان نور الدين سنيًا متشددًا وكان صلاح الدين كسيده نور الدين في ميوله السنية.[1]

ويبدو أن نور الدين كان يلح على إسقاط الخلافة الفاطمية حتى أرسل أمرًا نهائيًا إلى صلاح الدين بإسقاط اسم الخليفة الفاطمي العاضد من الخطبة وإحلال اسم الخليفة العباسي المستضئ بدلا منه، وهو ما يعني انتهاء الدولة الفاطمية ورجوع مصر إلى الدولة العباسية مرة جديدة.

تم ذلك في 567هـ، ومر هذا الانقلاب في هدوء وسكينة أو على حد قول ابن الأثير "لم ينتطح فيه عنزان"، وفيما يبدو أن الشعب المصري كان يرغب في ذلك، وبهذا انتهت الدولة الفاطمية نهائيًا في مصر وغيرها، بعد أن حكمت مصر حوالي قرنين من الزمان.

1- أ.د. محمد بركات البيلي – المرجع السابق – ص132